ترجمات

من الإلحاد إلى الاعتقاد

الفصل الأول من كتاب[١] من علم الوراثة إلى الإله (اعترافات الإيمان لأحد أكبر العلماء)

فرنسيس س.كولينز[٢]
ترجمة : أ.د. نورة بوحناش[٣]

(١) Francis S.Collins: De La génétique à Dieu - La Confession de foi d'un des plus grands scientifiques

(٢) مدير المعاهد الوطنية للصحة فى بيثيسدا ، ماريلاند ، الولايات المتحدة..

(٣) أستاذة فلسفة الأخلاق بجامعة قسنطينة ٢ الجزائر.

تميزت سنوات شبابي، بالثورة ضد التقاليد، لتتمظهر تلك الثورة عبر أساليب مختلفة. وبما أنني ابن لمفكرين يتميزان بالحرية، فقد تلقيت تربية متفقة جدًّا مع طبيعة الحداثة، وهذا في موقفها تجاه الإيمان، فلم يكن الإيمان بالضبط جد مهم بالنسبة لي.

تربيت في مزرعة موحلة في وادي شناندواه Shenandoah في فيرجينيا Virginia، حُرمت هذه المزرعة من المياه الجارية، فقد كان ينقصها بصورة لافتة للنظر الرفاه المادي، الذي يميز الحياة الحديثة. بيد أن هذا الحرمان قد تم تعويضه، بذلك الخليط المثير للتجارب المناسبة، التي قدمتها لي طريقة التفكير الرائعة، التي وضعها والدي في متناولي.

كان والداي قد التقيا في جامعة يال Yale سنة ١٩٣١، لكنهما غادرا مركزهما الجامعي ليلتحقا بجمعية **أرتردال Arthurdale** في فيرجينيا، التي أسهما فيها بمواهبهما وحبهما للموسيقى، حيث سيعملان مع **إليانور روزفلت Eleanor Roosevelt** في محاولة تنشيط جماعة منجمية مضطهدة، من القاعدة إلى القمة، وذلك في أعقاب الكساد الكبير.

إلا أن بعض مستشاري إدارة **روزفلت** كان لهم في الاعتبار بعض الأفكار المغايرة وقد اعتقدوا فيها، فعملوا حينئذ على نضوب هذه الجمعية بسرعة، ومِن ثمة التفكيك النهائي لجمعية **أرتردال**، بدافع أنها تقدح في سياسة واشنطن. الأمر الذي أدى بوالدي للإحساس اتجاه الحكومة بعاطفة ارتياب، لم يتخليا عنها أبدًا.

وسيلتحقان بعد ذلك بالحياة الأكاديمية لينخرطا في معهد إلون Elon Collège في برلنغتون Burlington في كارولينا الشمالية Caroline du nord، حيث يمنح الفضاء الريفي الجنوبي -بطريقة لا تصدق- ثقافة شعبية جميلة ومتوحشة.

هذا ما حث أبي على جمع تركيبة من الأغاني الفلكلورية، فأخذ يسافر عبر قمم الجبال والوديان، محاولاً إقناع السكان الأصليين لكارولينا الشمالية بالغناء في مسجله الصوتي برستو«Prestogo» **(علامة للتسجيل)**، ثم أتممت هذه التسجيلات بقطوف من أغاني **آلان لوماكس Alan Lomax[٤] (مغني أغاني إثنية وأغاني فولكلورية)** وستمثل هذه التأليفة من الأغاني قسمًا هامًّا من مجموعة الأغاني الفولكلورية الأمريكية في مكتبة الكونغرس.

> وعند اندلاع الحرب العالمية الثانية، اضطر والدي لوضع نشاطه الموسيقي على جنب؛ ليعير اهتمامه لأحداث أكثر أولوية؛ الدفاع الوطني، فقد ذهب للمساعدة في صناعة الطائرات المقنبلة، فإذا به قد وجد نفسه مشرفًا، على مصنع للطائرات في لونغ إسلاند **Long Island**.

مع نهاية الحرب، استنتج والداي أن حياة الأعمال الحرة، حياة مرهقة وضاغطة إلى حد بعيد، وبدا لهما أنها ليست الطريقة المناسبة لهما. وفي سباق مع الزمن، سلكا في سنوات ١٩٤٠ كما كان مسلك غيرهم في سنوات ١٩٦٠ فقد انتقلا إلى وادي **شناندواه Shenandoah** في فيرجينيا، ليشتريا مزرعة تمتد على ثمانٍ وثلاثين هكتارًا، وحاولا خلق أنموذج لحياة زراعية بسيطة، خالية من أدنى مظاهر المكننة الزراعية.

---

(٤) **آلان لوماكس Alan Lomax، (١٩١٥-٢٠٠٢)** هو مغني أمريكي شهير، وعازف مضلع على آلة القيتار، اشتهر صيته الفني، وهذا بأغانيه الاثنية الجامعة للثقافة الموسيقية الأمريكية. كما أنه جامع لكل أطياف الموسيقى الأمريكية، وخاصة تلك التي تنتمي إلى منطقة الكريبب. وقد أثر كثيرًا في الموسيقى الأوروبية. مما أدى إلى انتشار صيته في العالم كله، إذ عمل على إنتاج قطع موسيقية، ممزوجة بين الثقافات الإنسانية المختلفة.

ولكنهما أدركا بعد أشهر أن مثل هذا العمل، لن يمكنهما من إطعام ابنيهما المراهقين **(حيث سيضاف إليهما أخ آخر وأنا شخصيًّا)** سيحصل أبي بعد ذلك على منصب أستاذ فنون مسرحية، في الجامعة المحلية **(المخصصة للنساء)** ليوظف في المدينة ممثلين رجالاً.

لقد دفعت هذه التشكيلة وبسرعة الطلبة والتجار المحليين إلى فهم المظهر المدهش والمرح لإنتاج القطع المسرحية. لذلك سيعتبر البعض الانقطاع الصيفي، لهذه العروض المسرحية طويلاً ومملاً. وقد أنتجت هذه الملاحظة الكثير من الشكاوى، مما دفع أمي وأبي للحصول على مسرح صيفي في غابة البلوط، التي كانت تعلو مزرعتنا. وسيستمر مسرح **غابة البلوط الثاني Oak Grove (Théâtre) Chênaie** في الاشتغال بكل طاقته مقدمًا أروع العروض ولمدة تزيد على خمسين عامًا بعد ذلك.

ولدت في هذا المزيج السعيد للجمال الريفي، وقد زاوج بين العمل الزراعي وجمال المسرح الصيفي والموسيقى، في هذه الأجواء ترعرعت كليًّا. وباعتباري أصغر آخر أربعة ذكور، لم أستطع أن أحيد عن الهموم التي كانت مألوفة بالنسبة لوالدي، فكبرت وأنا مرفق بشعور، بوجوب أن أكون مسؤولاً عن سلوكي، وعن اختياراتي، وأنه لا وجود لشخص ينوب فيها عني، ويتكلف بها من أجلي.

وعلى غرار إخوتي الكبار، أحاطتني أمي المعلمة الموهوبة بالرعاية والتربية النظامية، لقد منحتني سنوات الصغر هدية لا تقدر، إنها هدية الفرح بالمعرفة.

وعلى الرغم من أن والدتي لم تكن لها ساعات درس مضبوطة، ولا برنامج دروس محدد، فقد كانت أنموذجًا فذًّا، على الأقل لنوع من الإدراك، يحسن التعرف على الموضوعات الكفيلة، بإثارة عقل طفل صغير، ثم تتابعها باهتمام كبير، موجهة إياها حتى تخلص إلى نهاية طبيعية، ومن ثمة العبور بعد ذلك نحو شيء جديد ومدهش. لم يكن التعلم شيئًا نأخذه بوصفه واجبًا، بل كان شيئًا نفعله بكد ورغبة.

> لم يمثل الإيمان جزءًا مهمًّا في طفولتي، إذ لم أعِ مفهوم الإله إلا وعيًا غامضًا.

فالتفاعل الذي كنت أمتلكه معه، لم يكن سوى وعيٍّ محدودٍ، وفي لحظات صبيانية أصادفها أحيانًا في مفاوضات قد ترتبط بشيء ما أردت أن يفعله الإله حقًّا من أجلي، أتذكر مثلاً حينما كان عمري تسع سنوات تقريبًا، عندما أبرمت عقدًا مع الإله، متقدمًا إليه بشرط، فإذا منع الطقس السيئ من إلغاء عرض مسرحي في يوم السبت مساء، وكذا حفلة موسيقية أنتشي بها مسبقًا وبشكل خاص، فإنني أعده ألا أدخن السجائر. وبالفعل بقيت الأمطار بعيدة، وبعدها لم أتعود على التدخين، وقبل

ذلك عندما كنت في سن الخامسة، قرر والداي أن أكون أنا وأخي الأكبر سنًّا أعضاء في فرقة الجوقة الخاصة بالكنيسة الغليكانية المحلية المؤلفة من الذكور.

قبل أن نذهب إلى هناك، بينا لنا أن هذا الانخراط في الجوقة، لا يعد سوى وسيلة للتدرب على طريقة ممتازة في تعلم الموسيقى. فليس من الضرورة أن تتعلما اللاهوت وتأخذا الأمر جديًّا، تتبعت هذه التعليمات حرفيًّا، فتعلمت القطع الموسيقية الرائعة وفن تأليف الموسيقى، تاركًا المفاهيم اللاهوتية، فكانت العظات المنبعثة من كرسي الكنيسة، تنزلق فوقي دون أن تترك في ذهني رواسب مدركة.

ولما بلغت سن العاشرة، انتقلت العائلة إلى المدينة، حتى تكون بجانب الجدة المريضة، التحقت في تلك الآونة بالمدرسة العمومية. ولما بلغت سن الرابعة عشرة، كانت عيناي منفتحتين انفتاحًا واسعًا على المناهج الرائعة والمثيرة للعلم. فقد أُلهمت من قبل أستاذ الكيمياء الذي يدرسني، أوه كم كان شخصية كاريزمية؛ إذ يستطيع في الوقت نفسه كتابة المعلومات نفسها على السبورة السوداء بيديه الاثنتين، اكتشفت للمرة الأولى النشوة الشديدة التي بالإمكان الشعور بها، أمام الطبيعة المنظمة للكون. فبمجرد أن كل مادة مصممة من ذرات وجزئيات انطلاقًا من مبادئ رياضية، مثلت أمام ناظري وحيًا غير متوقع، وبدا لي استخدام وسائل العلم في سبيل اكتشاف أشياء جديدة مرتبطة بالطبيعة شيئًا أريد أن أنخرط فيه وأكون جزءًا منه، هكذا ومع ما انتابني من حماسة مُهْتَدٍ جديدٍ، قررت أن يكون هدف حياتي محددًا في شخصية كيميائي، فمهما كانت معرفتي قليلة نسبيًّا في مادة العلوم، بدا لي أن هذا الحب الأول، يمكنني من تغيير الحياة.

في حين جعلتني لقاءاتي بالبيولوجيا باردًا تمامًا، وهكذا كنت أجري لهذه العلوم تقويمًا من صميم وعيي المراهق، إذ تبدو المبادئ الأساسية للبيولوجيا مبادئ تميل إلى أن تحفظ عن ظهر قلب، فهي تأليه للحقائق أكثر من كونها توضيحًا للمبادئ. فلم أكن مستعدًا لحفظ كل عضو من أعضاء سرطان النهر عن ظهر قلب، كما لم أكن مستعدًا أن أفهم ما الفرق الموجود بين شعبة phylum طبقة ونظام. لقد قادني التعقيد العارم للحياة، إلى استنتاج أن البيولوجيا تشبه إلى حد ما الفلسفة الوجودية، وبكل بساطة فهي ليس لها أي معنى.

وبالنسبة لعقلي الذي يقوم بعملية اختصار بطريقة غير ناضجة، لم تكن البيولوجيا ببساطة منطقية، لكي تجذبني إليها. حصلت على الباكالوريا في سن السادسة عشرة، لأكمل بعد ذلك مساري الطلابي في جامعة فيرجينيا، محددًا الاختصاص في الكيمياء، ومن ثمة أتبع بعد ذلك وظيفة علمية. عند انتسابي إلى الجامعة كنت كأي طالب حديث السن، مبتدأ لمشواره الجامعي، فلقد وجدت هذه البيئة الجديدة منعشة، بأفكارها المختلفة المندفعة

والبارزة، وقد كتبت في نصوص على جدران قاعة الدرس، وكذا في مخادع النوم عندما يأتي الليل. كانت بعض هذه الأفكار المتبادلة، تدور كلها حول وجود الإله.

عند بلوغي مرحلة المراهقة كانت لي فرص جربت فيها، وفي بعض المناسبات ذلك الحنين الذي نشعر به اتجاه شيء موجود خارج الذات. وقد كان بالنسبة لي مرتبطًا دائمًا بجمال الطبيعة، وبتجربة موسيقية تتميز بعمق مميز.

> ومع ذلك لم يكن حسي الروحي متطورًا إلا بنسبة ضئيلة، وربما قد يُوضع في مساءلة من قبل ملحد أو ملحدين شرسين، قد يحدث في أحايين كثيرة اللقاء بهما في كل مخادع النوم. كانت بضع أشهر من الدراسة الجامعية كافية لأؤلف قناعة، فالكثير من التقاليد الفنية والثقافية ذات الأهمية، قد أخذت إلهاماتها من الأشكال المتعددة للإيمان الديني، إلا أن هذه الأشكال لا تمتلك حقيقة جذرية[٥].

على الرغم من أنني لم أكن أعرف المصطلح في تلك الفترة إلا أنني كنت لا أدريًّا agnostique[٦] وهي كلمة من وضع **توماس هنري هيكسلي**[٧] **T. H. Huxley** عالم من القرن التاسع عشر، وتعبر الكلمة عن وضع شخص، لا يعلم بكل بساطة إذا كان الإله موجودًا. ويمكن أن نميز العديد من اللاأدريات: Les agnostiques بعضهم يصل إلى هذا الموقف، بعدما يقوم بعملية تحليل قوي للشهادات والدلائل الخاصة بمادة الإيمان، بعضهم -وهم كثر- يعتبرونها موقفًا مريحًا، يمكنهم من تفادي هنا وهناك الدلائل ذات التضمين المزعج.

كنت أنتمي إلى هذه الفئة بصفة كلية معلنًا **«أنني لا أعرف»** وبالتالي لم أكن بعيدًا عن الاعتقاد بـ**«أنني لا أريد أن أعرف»** وبصفتي رجلاً ترعرع في عالم يعج بالمحاولات، كان من المناسب بالنسبة لي أن أتجاهل الحاجة إلى أن أكون مسؤولاً أمام كل سلطة روحية متعالية.

---

(٥) فهي حقيقة لا مرئية ولا تبدو للإنسان عيانًا، ولكنها تتطلب منه التفكر والنظر، وهو الباب الذي تلج عبره المعرفة إلى اللامرئي، ويتطلب ذلك جهدًا من الإنسان يتركب من مركبين أساسيين: العمل السلوكي: فيتبن أنه كائن معنى، وبالموازاة تؤلف العملية المعرفية التفكرية سندًا منطقيًّا لتبين الحقيقة الإيمانية.

(٦) اللاأدري agnostique ويعني اللامعروف L'inconnaissable، وهي كلمة تواضع عليها هيكسلي وتعني غيابًا كليًّا للمعرفة اليقينية حول وجود الإله وكل= العالم اللامرئي، فهو مجال اللامعرفة، فالأغنوستيكي لا يؤمن ولا يكفر، بل يعلق حكم الإيمان دون أن يصدر حوله حكمًا.

(٧) **توماس هنري هيكسلي T. H. Huxley بيولوجي وفيلسوف بريطاني (١٨٢٥ -١٨٩٥)** صديق تشارز داروين، ومن أشد المدافعين عن نظرية التطور، وواضع مصطلح agnostique وهو تعبير عن تعليق المعرفة فيما يخص المعرفة الماورائية من قبيل المطلق، الماهية، غائية الموجودات وطبيعة الأشياء، ومنها وجود الإله وإن صحت استعارة الخلاصة الهيومية حول المعرفة، فهي قضايا لا يمكن معرفتها؛ لأنها -حسب مبدأ التحقق التحليلي الوضعي المنطقي- لا معنى لها. وعليه فالمسائل الميتافزيقية كما يرى هيكسلي، لا تعرف وممتنعة عن كل معرفة بشرية، والعقل البشري غير قادر على الولوج إلى هذه المناطق وبالتالي فهي غير معروفة، ومن ثمة فتقديم موقف عنها سواء كان إيجابًا أم سلبًا يكون من قبيل المستحيل، وقد صنف هيكسلي من قبل رجال الدين أنه ملحد.

وبهذا كنت أمارس أنموذجًا من الفكر والسلوك، يصفه الكاتب **س.س.لويس C.S.Lewis[٨] «بالعمى الإرادي»**.

بعد الحصول على شهادتي الجامعية، تابعت مساري الدراسي لأسجل في الدكتوراه في تخصص الكيمياء الطبية **Chimie Médicale** في جامعة **يال Yale**، فكان الدافع من وراء هذا الاختيار هو ملاحقة الأناقة الرياضية، فهي التي جذبتني إلى هذا الفرع من العلم. لأجد أن حياتي العقلية، قد انغمست في ميكانيكا الكوانطوم La mécanique quantique [٩] والمعادلات التفاضلية Les équations différentielles للنظام الثاني، فكان أبطالي هم ألبرت أينشتاين[١٠] Albert Einstein نيلز بوهر Bohr Niels[١١] وورنر هازمبرغ Werner Heisenberg[١٢] وبول جيراك Paul Dirac[١٣].

لقد اقتنعت تدريجيًّا بأن المعادلات ومبادئ الفيزياء بإمكانها تفسير كل ما هو موجود في الكون، وقراءتي لسيرة ألبرت أينشتاين ثم اكتشافي بأنه على الرغم من دفاعه عن الموقف الصهيوني بعد الحرب العالمية الثانية، لم يكن يؤمن **«بهايفي» «Yahvé»** إله شعب إسرائيل، أقول إنها لم تزد إلا تعزيزًا لاستنتاجي الخاص، فلا وجود لِعَالَم عقلاني يستطيع أن يتصور بجدية احتمال وجود إله دون أن يرتكب شكلاً من أشكال الانتحار العقلي.

(٨) **كليف ستبلز.لويس Clive Staples Lewis: (١٨٩٨ - ١٩٦٣)** كاتب بريطاني عرف بأعماله حول أدب العصور الوسطى، بعد تجربة بحث روحانية مضنية عاد إلى المسيحية، فكان من أهم المدافعين عن الإيمان المسيحي، بأسلوب أكثر عقلانية.

(٩) ميكانيكا الكوانطم La mécanique quantique: هي فرع من فروع الفيزياء، وثورة معرفية في قلب التطور، الذي عرفته الفيزياء في تاريخها المعاصر. يرتكز موضوعها حول دراسة ووصف الظواهر الأساسية، في الأنظمة الفيزيائية وبالضبط في المستوى الذري، وعناصرها المحتواة. ويعود تطور ميكانيكا الكوانطم إلى العمل الدؤوب الذي قامت به مجموعة من الفيزيائيين، بغية حل مشاكل متنوعة تعلقت بالفيزياء الكلاسيكية، وهو ما أدى إلى تصور ظاهرة الذرية ومحتوياتها اللامتناهية في الصغر، وقد أقلبت هذه النتائج عدة مفاهيم جذرية، مثل مفهوم الزمان، المكان والحتمية، إذ تحولت من المطلقية إلى النسبية من الحتمية إلى اللاحتمية، وكان لهذا التطور أثره العارم على تطور التقدم التكنولوجي وعلى التصورات الفلسفية ثم الأخلاقية.

(١٠) **ألبرت أينشتاين Albert Einstein يعد أينشتاين نقطة فاصلة في تاريخ الفيزياء، ألماني المولد (١٨٧٩-١٩٥٥)** ثم هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية بعد صعود الحزب النازي، فالخطر كان يتهدده بسبب ملته اليهودية. إن ما يجعل أينشتاين أبرز فيزيائيي القرن العشرين، هي النظرية النسبية التي أحدثت ثورة عارمة في المفاهيم الفيزيائية، ولما لا في التصورات الفلسفية عن الزمان والمكان، كان له دور فاعل في نمو حركة العلم، نال جائزة نوبل ١٩٢١.

(١١) **نيلزهنريك دافيد بوهر Niels Henrik David Bohr: (١٨٨٥ -١٩٦٢)** فيزيائي دنماركي عرف بمساهمته في بناء ميكانيكا الكوانطم، كان لأبحاثه حول الذرة أثرها البارز في تطور الفيزياء المعاصرة، نال جائزة نوبل في الفيزياء سنة ١٩٢١.

(١٢) **ورنر هازمبرغ Heisenberg Werner:(١٩٠١ -١٩٧٦)** فيزيائي ألماني أحد كبار مؤسسي فيزياء الكوانطوم، نال جائزة نوبل سنة ١٩٣٢ بسبب اختراعه لفيزياء الكوانطم.

(١٣) **بول جيراك Paul Adrien Maurice Dirac: (١٩٠٢ -١٩٨٤)** رياضي وفيزيائي بريطاني هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية، ويعد أحد مؤسسي فيزياء الكوانطم، وهو الذي تحدث عن وجود اللامادة، نال جائزة نوبل مع إرويغ سشرودينغير Erwin Schrödinger في سنة ١٩٣٣ على اكتشافهما الصور الجديدة والضرورية للنظرية الذرية.

وهكذا كان عبوري الهادئ من اللاأدرية L'agnosticisme إلى الإلحاد[١٤] L'athéisme، فكان تفنيد معتقدات الروحانية لكل شخص قد يذكرها في حضوري، تحديدًا أمرًا ميسورًا وسهلاً، وصرت لا أتوانى عن العمل على الإنقاص من قيمة هذه الآفاق المذكورة، واصفًا إياها بالانفعالية والخرافة العتيقة الطراز.

مرت سنتان على بداية دراساتي، في سبيل إنجاز أطروحة الدكتوراه، إلا أن حياتي التي كانت دائمًا محسوبة ومخططة بدقة، بدأت بالتبعثر والتمزق. فعلى الرغم من اللذة اليومية، التي كنت أشعر بها وأنا أتابع مذكرتي **(مذكرة الدكتوراه)** حول ميكانيكا الكوانطوم Mécanique quantique، فقد بدأ الشك في المقصد الخير لاختياري هذا يتسرب إلى نفسي، لأتساءل عن أفضل الطرق التي يمكن اتّباعها في حياتي، فقد بدا لي أن أغلب التطور الذي حققته نظرية الكوانطوم، يعود إلى أربعين سنة قد خلت، وأنني من الممكن أن أصرف القسط الأوفر من مهنتي في تطبيق التبسيطات والاحتمالات، بوصفها فائقة الدقة في تسلسلها المنطقي **(وأكثر دقة)**، ولكنها قليلاً جدًّا ما تجد حلًّا. في الواقع بدا لي أن هذا السبيل، يقودني إلى أن أحيا حياة أستاذ يعرض مجموعة لا متناهية من الدروس حول الترمودينامیکا[١٥] La thermodynamique وكذا

(١٤) الإلحاد athéisme `L: يعد الإلحاد ظاهرة تاريخية واكبت تاريخ الإنسان، وهو تعبير عن النفي الكلي لوجود الإله، سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. للإلحاد علاقة متينة بالفلسفة، إذ يوصف الكثير من كبار الفلاسفة بأنهم ملحدون، أبيقور، هوبز، سبينوزا، ماركس، سارتر وغيرهم الكثير. على الرغم من أن هؤلاء يتفاوتون في الاعتراف بوجود تصور عن إله ما، فأبيقور مثلاً يعترف بوجود الآلهة، ولكنه يؤكد استقلاليتها الكلية بالنسبة لعالم الإنسان، نافيًا العناية التي يترقبها الإنسان من عالم الألوهية، فالمادة هي المسؤولة عن كل ما يحدث في العالم، فقد عثر = = في المذهب الذري عند ديموقريطس على وعاء التفسير الممكن، لوجود العالم والإنسان، وهو بهذا التفسير تخلص من ضغط الألم، الذي يحدثه الإيمان بالآلهة، من تصورات عن الموت والعالم السفلي. فلا خوف من الموت بما أنه لحظة تفكك الذرات المؤلفة للجسد، فحين نكون لا يكون الموت، وحين يكون الموت لا نكون. وتعتبر النظرية الأبقورية عامل تفسير عميق للوضع الإنساني في مرحلة انحلال المذاهب الفلسفية الكبرى، فالأتراكسيا تعد حالة متعة كلية؛ إذ تتخلص فيها النفس من آلام السؤال كلها. أما هوبز مثلاً فيذكر إلهًا لا يشبه إله الدين وهو إله يتفق مع تصوراته عن الشر، لكن الإيمان به يعد عملاً غير واجب بما أن الغرائز هي المحرك الأساسي لعالم الأخلاق. في حين عوض سبينوزا الإله بالطبيعة والعالم لا يفسر إلا بالقوانين التي تحرك الطبيعة، لذلك تأتي نظرية وحدة الوجود كمجال للتفسير، وقد ارتبطت بالتطور الكبير الذي حصلته الفيزياء في ذلك العصر.
لقد ازداد الإلحاد في العصر الحديث بسبب تطور العلوم، وعرفت الحداثة ظاهرة الإلحاد باعتبارها مواكبة للعقلانية التي فرضتها الروح الحديثة، فقد اعتبر الموسوعيون -بفضل الثورة العلمية- أن المادة تستطيع أن تتحرك بذاتها ولذاتها باعتبارها مكتفية ذاتيًّا، فتم لهم نفي كل المعتقدات الروحانية مثل: الخلق، وخلود الروح وغيرها من المعتقدات الإنسانية التي تؤمن الطمأنينة وترجح المبادئ الأخلاقية، إذ يقدم الملحد أدلته على عدم وجود الإله واصفًا للتناقضات التي تتساوق داخل عالم الألوهية، منها التناقض بين الخير والشر، فكيف يتم التوفيق بين العدالة والشر كظاهرة كونية عامة، مع وجود إله خير؟ أما في العصر الراهن فقد ارتبط الإلحاد بالعلم كليًّا، وهو عقيدة صميمية لدى العلماء. فعلى الرغم من روعة الكون المعجز الذي يجري في ملاحظات العلماء، فإنهم يتوقفون عند مجرد القوانين غافلين عن عامل التفسير العميق لدلالة القانون ونظام الكون وجماله، وتعد نظرية التطور أحد العوامل الرئيسة لانتشار الإلحاد كدين للعلماء. والحق أن تبرير الحقيقة بعدم وجود الإله، ينتهي إلى حال من الانسداد الميتافيزيقي المخنق ينتهي فيه الملحد إلى الشرود الكلي، فكل ما يحيط بالإنسان ليس له معنى، ومن ثمة سيفقد الجدوى من كل الوجود، ويضيق الصدر حرجًا ليصعد إلى السماء، ونهاية الإلحاد هو الإبلاس والفوضى، ثم اليأس من الحياة جملة وتفصيلاً.

(١٥) الترموديناميكا La thermodynamique أو الديناميكا الحرارية: هو أحد فروع الميكانيكا الإحصائية، موضوعه هو دراسة تحول الشكل الحراري إلى أشكال ووجوه أخرى، على سبيل المثال تحول الطاقة الحرارية إلى طاقة ميكانيكية، وكذا تحولها إلى طاقة كهربائية، وقد أحدث هذا الفرع ثورة عارمة في مجال التطبيقات التقنية منذ بداية الثورة الصناعية منها الآلة البخارية.

حول الميكانيكا الإحصائية La Mécanique Statistique [١٦]، لتُشْرَحَ في قاعات الدرس بطريقة متتالية، لتُلقَى على طلبة قلقين منزعجين من مثل هذه الموضوعات.

وتقريبًا في الفترة نفسها، وفي سبيل بذل الجهد موسعًا آفاقي المعرفية، سجلت في دروس الكيمياء الحيوية Biochimie [١٧]، لكي أدرس في نهاية المطاف علوم الحياة، وقد كنت في الماضي حريصًا على تفاديها. فكان الدرس بكل بساطة درسًا مذهلاً، مبادئ أ.د.ن A D N [١٨] ل أ. ر. ن A R N [١٩] والبروتينات، وقد كانت بالنسبة لي سابقًا فاقدة للبداهة، ها هي وقد أعلنت عن مجدها الرقمي الثابت.

وهكذا مكنني الكشف عن الرمز الجيني من استيعاب فكرة أكدت لي أنه من الممكن فهم البيولوجيا، بفضل تطبيق المبادئ العقلية الصارمة **(هذا شيء كنت أعتبره إلى ذلك**

(١٦) **الميكانيكا الإحصائية La Mécanique Statistique أو الثيرموديناميكا الإحصائية، وتعني علم إحصاء الحركة أو علم إحصاء الحركة هي تطبيق لنظريات الإحصاء، الذي يتألف من مجموعة أدوات رياضية للتعامل مع التجمعات الضخمة ضمن مجال الميكانيكا الذي يهتم بحركة الجسيمات أو الأجسام عند خضوعها لقوى خارجية؛ لذلك تؤمن الميكانيكا الإحصائية إطارًا لربط الخواص المجهرية properties microscopic للذرات والجزيئات مع الخواص الظاهرة (المجهرية)** macroscopic properties للمواد المدروسة. فهي تفسر التحريك الحراري على أنه نتيجة للإحصاء **(توزيع الذرات والجزيئات في نظام طبقًا لحالاتها الطاقية المختلفة)** مع استخدام الميكانيكا بجانبيها **(الكلاسيكي والكمي)** ويكيبيديا.

(١٧) الكيمياء الحيوية Biochimie: تعد أحد فروع العلوم الطبيعية، وموضوعها هو دراسة التركيب الكيميائي في أجزاء الخلية لكل الكائنات الحية بداية من البكتريا إلى الإنسان، ومن مجالاتها المادة الوراثية أ.د.ن A D N وأ. ر. ن A R N.

(١٨) **أ.د.ن A D N أو D N A وهو اختصار (الحمض النووي الريبوزي المنقوص الأوكسيجين)** وتتكون سلسلة الحمض النووي من ارتباط مجموعة من الفوسفات في كل نيوكليوتيد مع سكر الرايبوز منقوص الأكسجين في النيوكليوتيد. وتشكل سلسلة القواعد النيتروجينية في جزيء DNA مخزون المعلومات الوراثية، ويسمى ترتيبها بالشيفرة الوراثية التي تميز الكائنات الحية عن بعضها. وهو مؤلف من سلسلة من النيوكليدات تلتف بشكل حلزوني. ومن الملاحظ أن القاعدة النيتروجينية أدنين A تكون في إحدى السلسلتين وترتبط مع القاعدة النيتروجينية ثايمين **(تيمين)** T في السلسلة الثانية، وترتبط معها برابطتين من الروابط الهيدروجينية في حين تكون القاعدة النيتروجينية غوانين G متقابلة مع القاعدة النيتروجينية سايتوسين C وترتبط معها بـ٣ روابط هيدروجينية. وهي تعبر عن المادة الوراثية، التي تحمل المعلومات الخاصة بالحياة، وهي تؤشر إلى الإرشادات الخاصة بالوظائف البيولوجية للكائن الحي من نمو وتطور. ويحتوي أ. د.ن على الرموز الجينية الخاصة بكل إنسان، ويحمل المعلومات الضرورية لبناء البروتينات اللازمة للوظائف المختلفة للجسم، أما المعلومات الجينية المنقولة فيكون نصفها للأب والنصف الآخر للأم.

(١٩) **أ. ر. ن (A R N)** تعني الحمض النووي الرايبوزي، ويتألف من سلسلة واحدة فقط من النيوكليوتيدات التي ترتبط بعضها مع بعض بالطريقة نفسها التي يرتبط بها جزيء D N A، ولكنه يختلف عن جزيء D N A في احتوائه على القاعدة النيتروجينية يوراسيل U، بدلاً من احتوائه على الثايمين T، في حين يحتوي الاثنان على القواعد النيتروجينية **(أدينين A)** و**(جوانين G)** و**(سيتوسين C)**. وتوجد ثلاثة أنواع من الحمض النووي R N A داخل الخلايا وهي:

mRNA - أو RNA الرسول، وينقل الشيفرة الوراثية من الجينات في النواة إلى الريبوسومات، ليتم تصنيع البروتينات المختلفة داخل السيتوبلازم.

tRNA - أو RNA الناقل، وينقل الأحماض الأمينية في العصارة الخلوية **(زيتوسول)** إلى الريبوسومات لاستخدامها في عملية بناء البروتينات.

rRNA - أو الريبوسومي، يستخدم في إنتاج الريبوسومات في النوية داخل النواة الخلية. ويكيبيديا.

الحين أمرًا مستحيلاً) ومع ظهور مناهج جديدة مكنت من اللصق الإرادي بين أجزاء الأ.د.ن **(أ.د.ن مرتبًا)** بدا أن تطبيق مجموع هذه المعارف لصالح الكائن البشري ممكنًا واقعيًّا، انتابتني الدهشة، فالبيولوجيا بعد كل هذا تمتلك رونقًا رياضيًّا، وإذن فالحياة لها معنى.

وفي التزامن مع الفترة نفسها، لم أكن قد بلغت من العمر إلا اثنين وعشرين عامًا، بالإضافة إلى أنني كنت قد تزوجت وأبًا لبنت صغيرة لامعة وفضولية. في هذه الأثناء أصبحت اجتماعيًّا أكثر فأكثر، في حين كنت في شبابي أحبذ العزلة والبقاء وحيدًا. والحال هكذا فقد بدا لي من هنا فصاعدًا أن التفاعل البنذاتي بين البشر، وكذا الرغبة في تقديم شيء ما للبشرية يُعدان من الأهمية بمكان.

لألف رؤية تركيبية جامعة لهذه الرؤى المفاجئة بدأت بالتساؤل عن تكامل اختياراتي السابقة، بما فيها معرفة إذا ما كنت مؤهلاً حقيقة لممارسة العلم، أو بالأحرى إذا كان لا بد لي من القيام ببعض البحوث الشخصية. وقد كنت على وشك إنهاء بحث الدكتوراه، لأغوص في اختبار طويل للضمير، قادني في نهاية المطاف إلى اتخاذ قرار إيداع طلب قبولي في مدرسة الطب. وعليه فقد حاولت عبر تحرير خطاب مدبج قدر الإمكان إقناع لجان القبول، بأن صيرورة الأحداث التي مررت بها، تُعَدُّ طريقًا طبيعيًّا في سبيل تكوين أحد الأطباء المستقبليين في بلدنا. قبل كل شيء ألَمْ أكن الشخص الذي كره البيولوجيا، بما أنها تستوجب ضرورة استذكار الأشياء حفظًا؟ ما ميدان الدراسة الذي يستوجب الحفظ أكثر مثل الطب؟ وعليه وجد من هنا فصاعدًا على الأقل شيء مختلف، فالأمر يتعلق بالإنسانية وليس بسرطانات البحر، والتفاصيل كانت متضمنة في المبادئ، إن هذا يمكن بشكل جيد من إحداث اختلاف بالنسبة لحيوات الأشخاص الحقيقيين.

وهكذا قُبِلْتُ في جامعة **كارولينا الشمالية Caroline du Nord**، ومع مرور بعض الأسابيع أدركت أن مدرسة الطب كانت هي المكان المخصص لي. فلم أحب الإثارة العقلية السائدة فقط، ولكن الرهانات الأخلاقية لهذا التخصص ومكونه الإنساني أيضًا، وكذا التعقيد العجيب للجسد البشري.

إبان شهر ديسمبر من سنتي الأولى في الطب، اكتشفت سبيلاً للتوفيق بين حبي الجديد للطب وحبي القديم للرياضيات. في هذه الأثناء عرفني طبيب أطفال ذو شخصية صارمة وغامضة، كان يقضي في سبيل طلبة السنة الأولى ست ساعات من دروس رائعة حول علم الوراثة الطبي Génétique Médicale[٢٠]. كيف أرسم مستقبلي.

إذ كان يطلب من بعض مرضاه، المصابين بأمراض مختلفة مرافقته إلى قاعة الدرس، وتتنوع هذه الأمراض بين فقر الدمAnémie [٢١]

(٢٠) علم الوراثة الطبي Génétique Médicale .

(٢١) فقر الدم Anémie.

إلى فقر الدم المنجلي hématies falciforme[٢٢] إلى الاستقلاب الغذائي galactosémie[٢٣] **(عدم قدرة على احتمال المواد المشتقة من الحليب في كثير من الأحيان هو مرض مميت)** مرورًا بمتلازمة داون Syndrome de Dawn[٢٤]، فكل هذه الأمراض تتسبب فيها أخطاء تنتج عن الجينوم، وفي بعض الأحيان يكون التغير في حرف واحد هو المسؤول عن المرض.

هكذا أُخِذْتُ برونق رمز أ.د.ن البشري، وكذلك بالنتائج المتنوعة التي يسيرها بسبب لحظات من لامبالاته القليلة حيث يكون ميكانيزم نسخته برهانًا عليها. بالإضافة إلى هذا فقد أُخِذْتُ كذلك بإمكانية القيام حقيقة بشيء ما، بغية مساعدة عدد كبير من الأشخاص المصابين بأمراض وراثية، وقد بدت هذه العملية في تلك الفترة بعيدة المنال إلى حد بعيد.

هكذا انجذبت إلى هذا التخصص بسرعة على الرغم من أنه في هذه الفترة، لم يكن هناك أدنى ملمح من احتمال أيًّا كان نوعه أكثر عظمة، مهما كانت نتائجها مهمة فقد يلامس أصغر عقل إنساني مثل أهمية مشروع الجينوم.

> مصادفة يظهر أن السبيل الذي سرت فيه في ديسمبر ١٩٧٣، يقود مباشرة إلى أحد المشاريع الإنسانية الأكثر روعة.

كما قادني هذا السبيل أيضًا، وقد كنت في السنة الثالثة في دراسة الطب، للاطلاع على التجارب القوية في كيفية التكفل بالمرضى. وبما أنهم أطباء في مسار التكوين، فإن طلبة الطب يتجهون إلى تطوير علاقات أشد حميمية مع أشخاص لم يكونوا يعرفونهم قبل الإصابة بالمرض. وفي أثناء هذه العلاقة تزول كل الحواجز الثقافية التي تحول عادة دون تبادل المعلومات الخاصة والحميمة جدًّا بين الأشخاص.

يجري هذا التعرف بين الأطباء والمرضى بمجرد أن تحدث ملامسة فيزيائية، في أثناء معاينة طبية للمريض. إنها قرابة تضفي -لا محالة- شكلاً من الحميمية، من تلك العلاقة التي تستقر بين الطبيب ومرضاه.

كل هذا يمثل جزءًا من ميثاق، أوه، كم هو ميثاق قديم ومحترم، يتوج العلاقة بين المريض والمعالج. لقد وجدت أن هذه العلاقات مع المرضى الذين هم في حالة معالجة، وكذا أولئك الذين هم في حالة احتضار إلى حد ما مرهقة، فجاهدت نفسي لأبقي على مسافة وظيفية بيني وبينهم، وأقلل من نسبة التدخل العاطفي مع هؤلاء، كما يوصي به الكثير من أساتذتي.

ما كان مدار تأثير عميق فيَّ، كان بخصوص تلك المحادثات التي كنت أجريها بمحاذاة رأس سرير المريض مع أناس كرولينا الشمالية الطيبين، إنه المظهر الروحاني الذي كان يجتازه

(٢٢) فقر الدم المنجلي hématies falciforme.

(٢٣) الاستقلاب الغذائي galactosémie.

(٢٤) متلازمة داون Dawn Syndrome de.

عدد منهم. فقد لاحظت أن الإيمان ينعم عليهم براحة كبيرة للسلام النهائي، سواء أتعلق الأمر بهذا العالم أو بالعالم الذي يعقبه، وأنه وعلى الرغم من الآلام الفظيعة، التي تعانيها معظم هذه الحالات لم يحاول هؤلاء المرضى إثارة مسألة إذا ما كان الإيمان هو مجرد عكاز نفسي، فهل استنتجت أن هذا الإيمان قد يكون قويًّا جدًّا؟ وإذا ما كانت المسألة تتعلق بمجرد طلاء يميز التقليد الثقافي، فلماذا لا يُظهر هؤلاء الأشخاص نفورهم من الإله، ولا يفرضون على أصدقائهم، وعائلاتهم الكف عن الإشارة إلى قدرة خارقة للطبيعة، هي قدرة مُجِبَةً وخِيرَةٍ؟[٢٥]

بيد أن هناك لحظة مثلت لي أكثر اللحظات صعوبة في الحياة، حينما سألتني سيدة مسنة تتألم يوميًّا مصابة بخناق الصدر Angine poitrine [٢٦] ولسوء الحظ هو مرض غير قابل للشفاء، بماذا أُومِنُ؟ فالأمر يتعلق بسؤال شرعي، في الواقع تطرقنا معًا وفي مناسبات كثيرة لقضايا هامة تتعلق بالحياة والموت، أحاديث أخبرتني خلالها بإيمانها المسيحي العميق. عندها شعرت باحمرار سحنة وجهي، وكنت حينها أتأتئ قائلاً: **«حقًّا لست متيقنًا جديًّا»** لقد أبانت المفاجأة التي أبدتها هذه السيدة بعد سماع شهادتي، بوضوح عن وضع شديد الصعوبة، وهو وضع حاولت تجنبه، تقريبًا إبان ست وعشرين سنة خلت، إذ لم أقم قط بفحص جدي للدلائل، التي قد تشهد لصالح أو ضد الإيمان.

> سكنني هاجس هذه المحادثة لأيام عديدة، أفلا أعتبر نفسي عالمًا؟ فهل يستخلص العالم النتائج دون اعتبار المعطيات والنظر فيها؟ أهناك قضية أكثر أهمية في الوجود الإنساني أكبر من **«هل يوجد إله؟»** ومع ذلك حيثما كنت هأنذا أجد نفسي أُألفُ أنموذجًا من العمى الإرادي، لشيء ما لا يمكن اعتباره إلا تكبرًا، فتجنبت كل اختبار جدي يرتبط بوضع أن الإله يمكن أن يكون إمكانًا واقعيًّا. فجأة بدت كل الدلائل ضعيفة، فأحسست بأن الجليد يتشقق من تحت قدميَّ.

كانت هذه اليقظة تعبيرًا عن التجربة الأكثر ترويعًا، وبالتالي فإذا لم أستطع الاعتماد على المؤازرة القوية التي يمكنني منها موقفي كملحد، فهل يجب عليَّ أن أتخذ مسؤولياتي من أجل أفعال أُفَضِّلُ ألّا أتردد في التفكير فيها؟ فهل هناك تبرير أقدمه إلى شخص آخر، إلا أن يكون هذا الشخص هو أنا شخصيًّا؟ لتصبح المسألة من هنا فصاعدًا ضاغطة ومرهقة، مما يعني أنه لا يمكن الهروب منها البتة.

---

(٢٥) لا يكف السؤال الأنطولوجي، عن استثارة الذات للبحث عن سؤال البدء والمنتهى، إنه سؤال الحيرة الإنسانية، يستذكر ويكرر ملحًّا، لكن فترات الضعف الإنساني هي مقامه الأول والأخير. يخبرنا كولينز عن حال هؤلاء المرضى الراضين بالمصير: لأنهم يشعرون بسلام الإيمان، فقد استسلموا للقوة التي تسكن كيانهم وتجعل منهم أكثر قبولاً للوضع.

(٢٦) بخناق الصدر Angine de poitrine

كنت متيقنًا في البداية من أن كل عملية فحص كاملة للأسس العقلانية للإيمان تكذب مشروعية المعتقد وتؤيد إلحادي، وعليه عزمت على الأقل على تحديد التفكير في الوقائع، مهما كانت النتائج. وهكذا بدأ تنقيبي المحير عبر الأديان الكبرى الموجودة في العالم، عدد من المعلومات مسجلة في دلائل الإرشاد الخاصة بدراسة الأديان المختلفة **(وجدت في قراءة النصوص المقدسة عسرًا شديدًا)** فجعلتني هذه القراءة مرتبكًا وفي صراع، بما أنني لم أعثر إلا على دواعٍ ضئيلة للانجذاب إلى هذه أو تلك الاحتمالات العديدة. ومن ثمة شككت حقيقة في أن الاعتقاد الروحاني الكامن خلف أيٍّ من هذه الأصناف من الإيمان قد يتضمن أساسًا قاعدة عقلانية، ومع ذلك لم تكن هذه الشكوك لتبيت المكوث. وبسرعة وجدتني أتخذ خطوة، فزرت قسًّا **متوديا méthodiste** [٢٧]، يقطن في آخر الشارع، بغية التحادث معه، حول المعنى المنطقي الممكن لمضمون الإيمان، أنصت إلى أوهامي الغامضة بصبر واهتمام **(من المحتمل أن تكون مجرد تجديف)** بعد ذلك أخذ كتابًا من فوق رفه وسلمني إياه، مقترحًا عليَّ قراءته.

تعلق الأمر بكتاب أسس المسيحية **Mére Christianity** لـ **س.س لويس C.S. LEWIS** قلبت صفحات الكتاب في الأيام التي تلت، حينها كنت أصارع لكي أمتص غزارة وعمق الحجج العقلية المعروضة من قبل عالم أكسفورد الشهير، فأدركت عندئذ أن كل ما جمعته لأحط من معقولية الإيمان، لم يكن جديرًا إلا بتلميذ مبتدئ. وتبين لي بداهة أنه لكي أنظر في كل هذه القضايا الإنسانية الهامة يجب أن أجري عملية مسح للطاولة، إذ يبدو أن لويس كان على دراية باعتراضاتي كلها، بل في بعض الأحيان قبل أن أركبها جيدًا، يتناولها في صفحة أو صفحتين. وعندما علمت بعد ذلك أن لويس كان هو ذاته ملحدًا، وأنه سار في المسلك نفسه لتفنيد الإيمان، معتمدًا على قاعدة البراهين العقلية، فهمت إلى أي درجة كان من الطبيعي أن يتميز بهذا الحذق وإلى هذه الدرجة، أما فيما يخص طريقي الخاص، فقد كان يماثل طريقه أيضًا.

> إن الحجة التي استرعت انتباهي أكثر، والتي خلخلت تلك الأفكار أكثر بكثير، هي التي كنت قد تصورتها بخصوص العلم والروح وصولاً إلى حد أصولهما، فهي توجد بدقة في عنوان الكتاب

(٢٧) الميثودوثي méthodiste وهو العضو الذي ينتمي إلى الكنيسة الميثودوثية، التي توجد ضمن الكنيسة الأنغليكانية البروتستانية، والمثودثي يعني المنهجي أي فهم النص بشكل منهجي، وكذا السلوك يكون متطابقًا مع الفهم. ويعود تاريخ وجود هذه الكنيسة إلى منتصف القرن الثامن عشر، حيث تمت إصلاحات دينية في إنجلترا والمستعمرات الأمريكية تحت توجيه جون ويسلي في أكسفورد مؤلفًا مع بعض الأتباع ليؤسسوا نادي القديسين، إذ ركز على ضرورة القراءة المنهجية للكتابات المقدسة، وكذا ضرورة العيش وفق حياة متناغمة مع المبادئ الدينية للإنجيل، فهم كما يعتقدون أنهم أتباع أصليين لتعاليم المسيح عليه السلام. وتركز المبادئ الدينية لهذه الكنيسة على أولوية الاعتقاد بالنعمة الإلهية بالنسبة للجميع، دون استثناء بين الرجال والنساء، كما يركز الميثودوثي على مبدأ الحوار والحب، ولهذه الكنيسة دور كبير في الاستمالة الدينية للمؤمنين في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث تجمع عددًا معتبرًا من الأتباع، منها ثمانية ملايين في الولايات المتحدة الأمريكية وعددًا معتبرًا في كندا وإفريقيا.

> **«الخير والشر علامات عن معنى الكون»** بالإضافة إلى أن **«القانون الأخلاقي»** الذي وصفه لويس بطرق متعددة، هو خاصية كونية للوجود البشري، حينئذ كان لديَّ على الأقل شعور بالاعتراف، والتسليم لأول مرة.

بغية فهم القانون الأخلاقي، كان من المفيد فحص الطريقة -كما فعل لويس- التي يتم من خلالها استدعاء القانون الأخلاقي، وذلك عبر مئات الصور المختلفة، دون أن يكف هذا المُسْتَدْعِي عن بيان أساس حجته. يعد الاختلاف جزءًا من الحياة اليومية، بعض هذه الاختلافات هي اختلافات عادية، مثال معاتبة امرأة لزوجها، لأنه لم يحادث أحد أصدقائها بصفة لبقة، أو تأنيب طفل بقولنا **«هذا ليس صحيحًا»** أو عندما نوزع كميات غير متساوية من المثلجات في حفلة جامعية. وبالعكس تمتلك بعض البراهين أهمية أكثر بكثير، عندما يوافق بعضهم على أن للولايات المتحدة الأمريكية واجبًا أخلاقيًّا، يتعلق بنشر الديمقراطية في العالم بأسره، حتى إن استدعى ذلك اللجوء إلى القوة العسكرية. أما البعض الآخر فيعبر من جهته بأن استدعاء القوة العسكرية والاقتصادية بصورة عنيفة، ومن طرف واحد، قد يحدث هدمًا للسلطة الأخلاقية.

في الوقت الراهن يثير حقل الطب نقاشات حادة حول إذا ما يكون من الجائز القيام بأبحاث على الخلايا الجذعية الجنينية الإنسانية، إذ يؤكد بعضهم أن هذا الأنموذج من البحث يغتصب الخاصية القدسية للحياة الإنسانية، أما آخرون فيسلمون بأن احتمال تخفيف الألم الإنساني يؤلف هو ذاته تفويضًا أخلاقيًّا من أجل القيام بالفعل **(سأتطرق لهذا الموضوع، وكذا للكثير من المآزق المرتبطة بميدان البيوإتيقا في ملحق هذا الكتاب)**.

فلتسجلوا أنه في كل هذه الأمثلة حاولت كل جهة أن تحيل إلى مستوى ضمني أكثر علوًّا، هذا المستوى هو القانون الأخلاقي، الذي يمكن تسميته أيضًا **«قانون السلوك الخير»**، بالتأكيد هو حاضر في كل موقف من المواقف. ففي الأساس الأمر الذي يُناقش حقًّا هو القيام بضبط فعل أو آخر يستدعي القانون الأخلاقي، فالأشخاص المتهمون بالتصرف الخطأ -كالزوج الفاقد للمودة تجاه صديق زوجته- سيعثرون عادة على تدابير للاعتذار من أجل تجاوز العملية بأسرها، وبالتالي فإن الشخص المتهم لن يجيب أبدًا **«إلى الجحيم مفهومكم عن السلوك الخير»**.

نكون هنا بصدد علاقة متميزة، إذ يظهر أن مفهوم الخير والشر ذو صفة كونية، ويكون بهذه الصفة من أجل كمال الأعضاء المكونين للجنس البشري **(على الرغم من أن تطبيقات هذا القانون، قد تتسبب في نتائج تتميز بالاختلاف إلى حد بعيد)** بهذا يبدو ارتباط هذا المفهوم بقانون كما هو قانون الجاذبية والنسبية، إلا أنه إذا كنا شرفاء مع ذواتنا، فلن

ننكر أن الأمر يتعلق بقانون ننتهكه بانتظام لافت للنظر.

من الجلي أن هذا القانون ينطبق بصفة خاصة على الكائن الإنساني، وإن كانت بعض الحيوانات، تبدي بعضًا من بصيص الحس الأخلاقي، ومع ذلك فهو لا يستخدم على نطاق واسع، إذ ينمحي بشكل كبير عن سلوك الأجناس الأخرى كل معنى للخير الكوني في كثير من الحالات، من الممكن أن يرتبط هذا القانون بالوعي الذي نمتلكه عن الخير والشر، حيث يصاحب تطور اللغة، والشعور بالذات، وقدرة تخيل المستقبل، وهي ميزات يرجع إليها العلماء عند محاولة تعداد صفات الإنسان العاقلL' homo Sapiens.

مفهوم الخير والشر، أخاصية جوهرية تميز الكائن الإنساني، أم إنه مجرد سلوك ناتج عن التقاليد الثقافية؟ يصرح بعضهم بأن الثقافات تمتلك معايير تتفاوت فيما بينها تمامًا، وعليه فتحصيل قانون أخلاقي مشترك لا يمكن أن يكون أمرًا واقعيًا البتة، هذا ما سيسميه لويس الجامعي الغني بالتجارب الثقافية المتعددة **«كذب، كذب صارخ، إذ سيكون كافيًا زيارة إنسان ما للمكتبة، وقضاء أيام بصحبة موسوعة الديانات والأخلاق، لكي يكتشف الإجماع الساحق للعقل العملي الإنساني، انطلاقًا من النشيد البابلي في ساموس إلى قوانين ماني، إلى كتاب الموتى ثم مختارات الرواقيين والأفلاطونيين وكذا سكان أستراليا الأصليون إلى الهنود الحمر، إذ سيجمع الاستنكارات العلانية المشتركة وبصفة دائمة حيال الظلم، الخيانة والكذب، والأوامر نفسها التي تدعو إلى الطيبة تجاه الأشخاص المسنين، الصغار والضعفاء، فعل الصدقة، وتدل أيضًا على النزاهة والشرف»**[٢٨]*، يستطيع القانون اتخاذ صور مفاجئة في بعض الثقافات التي تبدو أنها قليلة الانتشار وغير عادية **(لنأخذ مثال إعدام الساحرات المفروض في أمريكا في القرن السابع عشر)** غير أنه عند فحص بدقة لهذه الانحرافات المعلنة، فلا نلاحظ إلا أنها قد أخذت أصولها من استنتاجات راسخة -وإن كانت خاطئة- تنص على أن هذا الشخص أو ذاك يجسد الخير أو الشر، إلا أنه وإن كنتم تعتقدون بصفة جازمة أن الساحرة هي تشخيص للشر على الأرض، فإن رسول الشيطان ذاته لا يبدو إذن أنه يبرر الأخذ بهذا الإجراء الشديد القسوة؟

> اسمحوا لي أن أتوقف هنا، لأنبه على أن الخلاصة التي تعتبر أن القانون الأخلاقي يوجد في الواقع، تتناقض بصفة جدية مع فلسفة ما بعد حداثة، وهي الفلسفة التي تؤيد عدم وجود

(28) * C.S.Lewis, << The Poison of Subjectivm >> **(<< Le Poison du Subjectivisme >>dans C.S.Lewis, Christian réflexions (réflexions chrétiennes)** édité par Walter Hooper ,Grand Rapides ,Eerdmans ,1967,P.77.
س.س لويس: **«سم الذاتية »**منشور في **«التفكير المسيحي»** .

> أي شر أو خير مطلقين، وبأن كل القرارات الأخلاقية قرارات نسبية، هذا الموقف الذي ينتشر بين الفلاسفة الحداثيين، موقف يجعل أغلب الرأي العام مصدومًا وفي حيرة من أمره، وذلك عبر سلسلة معقدة من الحجج المنطقية المتشابكة. فإذا لم تكن هناك حقيقة مطلقة، فهل يكون الفيلسوف ما بعد الحداثي في حد ذاته حقيقة، وبالتالي إذا كان الشر والخير غير موجودين، فلماذا يجب علينا أن نرافع لصالح الأخلاق؟[٢٩]

يجادل بعضهم من أجل إثبات أن القانون الأخلاقي ليس إلا نتيجة لضغوط تطورية، وتعود نشأة هذه الرؤية إلى ميدان جديد هو **علم الاجتماع الإحيائي Sociobiologie**[٣٠] وهو علم يحاول تفسير السلوك الغيري **(الإيثار)** انطلاقًا من قيمته الوضعية ضمن الانتخاب الداروينى، وإذا تم التحقق من هذه الحجة، فمن المحتمل أن تأويل معظم الشروط المطلوبة للقانون الأخلاقي بوصفه علامة على وجود الإله سيواجه بعض الصعوبات، وإذن من المهم فحص وجهة النظر هذه بالتفصيل.

فلنفحص مثالاً مهمًا عن القوة التي يمكننا القانون الأخلاقي من الإحساس بها؛ الدافع الغيري، صوت الضمير الذي يدعونا إلى مساعدة الآخرين على الرغم من أننا لا نجني من وراء ذلك مقابلاً، بطبيعة الحال لا تقلل متطلبات القانون الأخلاقي بالطبع من الغيرية؛ إذ لا يمكن أن يتناسب الشعور بتأنيب الضمير إطلاقًا، الذي قد ينتج عن قيامنا بنسخ طفيف لبعض الوقائع المشوهة الخاصة بالتصريح عن الضرائب، مع العاطفة الناتجة عن الإضرار بكائن إنساني غير معروف.

وإذن لنستهل بتوضيح الأمر الذي تحدثنا عنه، لا أقصد بالغيرية نوع السلوك التالي: **«لقد حَكَكتَ ظهري، فسأحك بدوري ظهرك»** يتضمن هذا العمل الطيب تجاه الآخر انتظارًا مباشرًا لعمل خير أكبر بالتبادل، إلا أن الغيرية تكون أكثر أهمية من هذه العملية؛ إذ يتعلق الأمر بعطاء خالص تقدمه الذات، منزهًا عن أدنى دافع ثانوي، فعندما تدرك هذا الأنموذج من الحب والكرم؛ فلا يمكنك إلا أن تشعر بالامتلاء بالاحترام وبالاعتبار، فلقد عَرَّضَ **أوسكار شتدلار Oskar Schindler** حياته للخطر، إبان الحرب العالمية الثانية عندما حمى أزيد من ألف يهودي من الإبادة النازية، غير أنه

(٢٩) من أهم المآزق التي تواجه البنية الأخلاقية اليوم هو الغياب الكلي للمفهوم الأخلاقي المتماسك، وذلك بفعل النقد المتواصل للأنموذج القيمي الثابت والمتصف بالعمومية والكونية، ليخلص إلى ضبابية كلية، فيما يخص ما القيم التي ينبغي أن يقصدها الإنسان؟ ما يبدو بالنسبة لكولينز مناقضًا تمامًا لوجود قانون أخلاقي مشترك يؤسس تواصلية بين الذوات، ثم إن كل تشريع أخلاقي يستهدف تنظيم السلوك يستوجب ضرورة الفهم الكوني والثابت للقيم بمعنى موضوعيتها ليرتكز ضرورة على وجود إله هو علامة على قيمة القيم.

(٣٠) علم الاجتماع الإحيائي «Sociobiologie أو البيولوجيا الاجتماعية، وهو علم ينكب على دارس العناصر البيولوجية للسلوك الاجتماعي معتبرًا أن أنواع السلوك الاجتماعي -بما فيها الأخلاق- تتعلق بمحددات بيولوجية جينية تخضع لآليات التطور، ولذلك يفسر هذا العلم القيم الأخلاقية بالعوامل البيولوجية الثاوية في حركية الحياة.

توفي بعد ذلك فقيرًا، لا يمتلك فلسًا واحدًا، فلا يسعنا إلا أن نكون مغمورين بالتقدير اتجاه ما فعله هذا الرجل. تعد **الأم تريزا La mére Teresa**[٣١] من بين أكثر الشخصيات تقديرًا في عصرنا، على الرغم من أنها مضطرة للعيش في الفقر ونكران للذات من أجل المرضى والمحتضرين في **كالكوتا Calcutta**، ما يعني أنه وضع متناقض كليًّا مع نمط الحياة المادية التي تتميز بها حياتنا الحديثة.

قد تمارس الغيرية في ظروف يكون فيها المستفيد من هذه الممارسة عدوًّا لدودًا، وتقص علينا الأخت جوان شتيستير Joan Chittister راهبة بنديكتية Bénédictine [٣٢] قصة صوفية[٣٣]* هي التالية:

كان في إحدى المرات أن اعتادت عجوز على التأمل وهي جالسة على ضفاف نهر الغانج، وفي صباح ما أنهت تأملها، فرأت عقربًا يطفو يائسًا في المجرى القوي، وحينما كان العقرب منجرفًا اتجاه الضفة علق في الجذور الممتدة إلى أعماق النهر، قاوم العقرب بعنف ليتحرر، إلا أنه لم تكن لهذه المقاومة نتيجة سوى اندفاعه ووقوعه متشابكًا أكثر، مدت المرأة يدها مباشرة اتجاه العقرب قبل أن يغرق وبمجرد ملامستها له لدغها، وفجأة سحبت المرأة يدها لتستعيد توازنها، ولتعاود الكرة مرة أخرى لإنقاذ هذا المخلوق، غير أنه وفي كل محاولة من محاولاتها المتكررة يلدغها ذيل العقرب بقوة، إلى حد أن سالت يدها دمًا، وتبدلت سحنة وجهها من جراء أثر الألم. رأى أحد المارة العجوز تتصارع مع العقرب فصاح بها: **«ماذا تفعلين أيتها الغبية؟ هل تريدين قتل نفسك لإنقاذ هذا الشيء الحقير؟»** فأجابت وهي تحدق في عيني هذا الغريب: **«طبيعة العقرب هي اللدغ، لماذا يجب عليَّ أنا أن أنكر طبيعتي الخاصة لكي أنقذه»**.

صحيح أن هذا المثال يعبر عن جنون محقق، إذ القليل منا قد يتباهى برمي نفسه في التهلكة من أجل إنقاذ عقرب، في حين شعر معظمنا بالتأكيد ولو مرة واحدة على الأقل، بالنداء الحميم يحثنا على السرعة لنجدة غريب يطلب الحاجة على الرغم من انعدام المنفعة الشخصية، وعند تتبع هذا الإقبال سنشعر بعدها بعاطفة تشجيع **«وقد أدينا خيرا»**

فحص س.س لويس في كتابه المميز **(The four loves) (أنواع الحب الأربعة)** هذا النوع من الحب الخالص، والمصطلح عليه

(٣١) **الأم تريزا La mére Teresa اسمها الأصلي بالألبانية آغنس غونكزا بوجاكسيو (١٩١٠-٢٠١٦)** كاثوليكية المولد، تعلمت في بداية حياتها في مدرسة يسوعية في يوغوسلافية السابقة، ندبت الأم تريزا حياتها لمساعدة الضعفاء، المنبوذين، المرضى... إلخ في الهند لم تكن غايتها هي جمع المال، فما يكون همها إلا القيم الأخلاقية.

(٣٢) **بنديكتية (Bénédictine)** وهي نحلة مسيحية ظهرت في إيطاليا على يد مؤسسها القديس بنوات Saint Benoit وتركز هذه النحلة على العمل اليدوي، والتمارين الروحية والحياة الجماعية.

(33) * -J. Chittister dans F.Franck, J. Rose et R.Connolly **(éd.)**What Does It Mean To Be Human? Reverence for Life Raeffirmed by Reponses from the Around the World **(Qu'implique le fait d'être humain ?La veneration de la vie réaffirmée par des réponses provenant du monde entier)**,New York,St.Martin's Griffin,2000,P.151.

بكلمة «Agape»[٣٤]، وهي كلمة منحدرة من أصل يوناني، مؤكدًا على ضرورة تمييز هذا النوع من الحب عن الأنواع الثلاثة الأخرى، وهي: **«المودة، الصداقة، والحب الرومانسي»** التي من الممكن أن تفهم على أنها خيرات متبادلة، على غرار ما نراها عند حيوانات أخرى لا تنتمي إلى العائلة الإنسانية.

> تؤلف Agape **«الحب المنزه عن الغاية»** أو الغيرية المجردة تحديًا كبيرًا للتطورية؛ إذ تحيل العقلانية الاختزالية التطورية إلى فضيحة صريحة، فلا يمكن تبرير الغيرية بواسطة التردد الحتمي للجينات الفردية الحاملة لعاطفة الحقد، بل بالعكس فقد تدفع بعض البشر إلى بذل تضحيات تنتهي بهم إلى آلام شخصية عارمة، إلى الإصابة بجروح بل وحتى الموت، دون أن ينالوا من وراء هذه التضحيات أدنى نفع يذكر، فلننصت إلى هذا الصوت الداخلي، الذي نسميه في بعض الأحيان الضميرَ، إننا نعلم أن الدافع إلى ممارسة هذا النوع من الحب موجود عند كل واحد منا، على الرغم من الجهود المتكررة التي نبذلها في سبيل نكرانه.

حاول عالم علم الاجتماع الإحيائي **إدوارد. أوسبورن. ولسون**[٣٥] **Edward.Osborne. Wilson** تفسير مثل هذا السلوك، معلنًا أن كل من يفعل فعلاً يحمل صفة الغيرية، فسيتحصل لا محالة على منافع تنتج بشكل غير مباشر، بيد أن هذه الحجج ما فتئت أن لقيت وبسرعة صعوبات كثيرة.

إذ تنص إحدى الدعاوي التي تؤسسها هذه الحجج، على أن تكرار سلوك غيري عند الإنسان يعرف على أنه سمة إيجابية كفيلة لأجل انتقاء صديق ما، غير أن مثل هذا الفرض يناقض كليًّا الملاحظات التي تم جمعها عن الحيوانات المتطورة Les primates مثل القرود، إذ تبدي هذه الحيوانات سلوكًا مناقضًا لسلوك الإنسان، وهو الأمر الملاحظ في سلوك القرد الذي يسيطر حديثًا على الفضاء الحيوي للجماعة التي يقودها، وبغية توطيد السلطة لنسله في المستقبل، يقتل وليدًا صغيرًا من أولاد القردة المؤلفين للجماعة. كما تقول حجة أخرى صراحة إن الغيرية تتضمن بطريقة غير مباشرة وخلال عملية التطور منافع متبادلة، وفي أثناء ذلك تمنح للفاعل امتيازات، إلا أن مثل هذا التفسير لم يضع في اعتباره تلك

(٣٤) وتعني وليمة المحبة، التي تعني الحب الإلهي واللامشروط، والكلمة غالبًا ما تقارب الشفقة المسيحية. أما بالنسبة لأفلاطون فهو الشكل الثالث الذي يتخذه الحب بعد الحب الجسدي الإيروس، والحب الإلهي هو حب منزه عن الغاية دون انتظار فائدة، إنها المحبة من أجل المحبة.

(٣٥) إد.أو.ولسون Edward.Osborne. Wilson؛ بيولوجي أمريكي، عالم حشرات Edward.Osborne. Wilson متميز ولد في ١٠ جوان ١٩٢٩ برمنغهام بألاباما Birmingham Alabama، بالولايات المتحدة الأمريكية، درس معسكرات النمل، ومكتشف البنية المجتمعية البيولوجية لحياة النمل داخل الجماعة. وهو مؤسس علم الاجتماع البيولوجي أو الإحيائي كرس اهتمامه على مصطلح التنوع البيولوجي، Biodiversité، طوره في بداية القرن الواحد والعشرين، مركزًا على الأضرار الجسيمة التي أصابت التنوع البيولوجي، وقد قاد معارك من أجل المحافظة على هذا التنوع وكتاباته تشهد على ذلك.

الدوافع البشرية التي تؤدي إلى ممارسة أفعال صغيرة على مستوى الضمير دون دراية من شخص آخر، حيث يجهلها هذا الشخص تمامًا.

كما تعبر حجة ثالثة عن فكرة مفادها أن كل سلوك غيري ينفذه أحد أفراد المجموع يجلب منافع أكثر لمجموع المجموع، وللاستدلال على هذه الحجة، تم اختيار معسكرات النمل أنموذجًا، فمجمع النمل **(الإناث)** العاملة والعقيمة تعمل بطريقة متواصلة بغية توفير بيئة ملائمة، لإمكان تكاثر النملة الأم، هاته التي تضع كمية كبيرة من صغار النمل. لكن هذا النوع من الغيرية من اليسير تفسيره، مستخدمين في ذلك المفاهيم التطورية، إذ الجينات التي تُفَعِّلُ عمل النملة العقيمة، هي ذاتها التي ستنتقل بالضبط بواسطة الأم إلى الإخوة والأخوات، إذ ينطبق هذا الربط الجيني المباشر وغير العادي على الفرد وليس على المجموع، وسيتفق التطوريون من هنا فصاعدًا وبصفة قطعية على اعتبار أن الانتخاب الطبيعي يجري على الفرد وليس على المجموع.

وإذن يختلف السلوك المبرمج للنملة العاملة جذريًّا عن ذلك النداء الباطني الذي يدفع بي إلى الإحساس بوجوب القفز من أجل إنقاذ إنسان من الغرق، حتى إن لم أكن سباحًا ماهرًا، وفوق هذا فلربما سأعرض نفسي للموت من أجل هذا الإنسان، بالإضافة إلى أن الحجة التطورية المدافعة عن فكرة الفائدة التي تعود على الجماعة، كنتيجة للإيثار الذي كان أظهره شخص ما، تستدعي إجابة معاكسة بالإضافة إلى أنها قد تكون دليلاً على العداوة، وعليه تكذب المحبة اللامشروطة عند أوسكار شيندلر والأم تريزا هذا النوع من المواقف، وكم سيبدو الأمر فاضحًا أيضًا، إذ ما أمر القانون الأخلاقي بإنقاذ رجل غريق حتى لو كان عدوًّا.

إذا كان من غير الممكن تفسير قانون الطبيعة البشرية إلا باعتباره صناعة ثقافية أو اشتقاقًا تطوريًّا، فكيف يمكن لنا تبرير وجوده؟، بيد أن ما يحدث هنا وبصراحة شيء غير عادي، وعلى حد تعبير لويس. **«في حالة وجود قوة محددة خارج الكون فلا يمكنها أن تتجلى لنا، كأحد العناصر الموجودة داخل الكون، ليس أكثر من مهندس المنزل الذي لا يستطيع أن يتجسد في حائط أو سلم أو موقد مكونين للمنزل. فالسبيل الوحيد الذي نستطيع بموجبه أن ننتظر تجليه لنا، سيكون من باطننا نحن بالذات، من قبيل تأثير أو قرار، محاولاً دعوتنا إلى السلوك بشكل ما. في حين أنه يتعلق بالضبط، بالذي نعثر عليه في داخلنا، ألا ينبغي لهذا أن يوقظ بالتأكيد ظنوننا؟»**[٣٦]*.

عندما عرفت هذه الحجة وكنت حينها في سن الستة والعشرين سنة، جعلني منطقها مشدوهًا، وإذن يختبئ في قلبي أنا هنا القانون الأخلاقي، مألوفًا بقدر ألفة تجربتي اليومية، بيد أنه الآن يتجلى بوضوح للمرة الأولى، مميزًا بخصائص المبدأ الواضح، هذا القانون الأخلاقي

(36) * C.S.Lewis, Mere Christianty **(les Fondement du Christianisme)**, Westwood Barbour& Company,1952,P.21.

الذي يلمع بنوره الأبيض الساطع في خبايا إلحادي الطفولي، مطالبًا بضرورة فحص هذه الأصول عبر تقدير شديد الجدية. فهل جاء الإله لتكون حياتي الماضية ملكًا له؟

وإذا ما كان هذا هو الحال، فما نوع هذا الإله؟ أيتعلق الأمر بإله خارج الدين Déiste[٣٧]، اخترع الفيزياء والرياضيات، وشغل حركة الكون منذ أزيد من أربعة عشر ألف مليار سنة، ليتجول بعد ذلك بغية القيام بإدارة مسائل أخرى أكثر أهمية، كما اعتقد أينشتاين؟ لا، فإذا كنت أفهمه جيدًا فسيكون إله المؤمن Théiste[٣٨] يريد المحافظة على شكل من العلاقة مع هذه المخلوقات المتميزة، التي هي الكائنات البشرية، فأوحى في بواطن كل واحد منا بهذه الفكرة المتفردة عن ذاته، إن هذا يمكن أن يكون إله إبراهيم، ولكنه لا يتعلق البتة بإله أينشتاين[٣٩].

كان لهذا الإدراك المتنامي عن طبيعة الإله -إذا كان حقيقيًّا- نتيجة أخرى، للحكم بواسطة المستوى الأعلى للقانون الأخلاقي، هو القانون الذي أعترف بانتهاكه المتواصل على مستوى الممارسة والتطبيق، يتعلق الأمر بإله بار وعادل، كما أنه يكون تجسيدًا للخيرية، وينبغي أن يكره الشر، فلا وجود لسبب واحد للشك في أن هذا الإله خير ومتسامح.

لقد جلب هذا النمو المتتالي للتحقق بمعقولية وجود الإله، معه عواطف متعارضة، فمن جهة إعادة الطمأنينة قبالة شساعة وعمق وجود هذا الأنموذج من الروح، أما من جهة أخرى فخوف عميق قبالة نقائصي الذاتية، وقد توضحت بجلاء لأراها على نوره.

بدأت هذا السفر الروحي الكاشف في فكرة في رأسي، لكي يؤكد إلحادي، لكن من هنا فصاعد فقد انهار كل هذا ليقع في الخراب، لقد أجبرني **«الدليل الأخلاقي ونقاط أخرى»** على الاعتراف بمعقولية فرضية وجود الإله. فاللاأدرية التي بدت لي أيضًا يومًا ما على أنها تجسيد لملجأ قوي ومتين، بدت لي بعد ذلك وبالضبط مجرد مهرب كبير كما كانت دائمًا، أما الإيمان فقد بدى لي الآن على أنه أكثر عقلانية من عدم الإيمان.

كما تبين لي وبوضوح أنه لا جدال في قدرة العلم على تفسير عجائب العالم الطبيعي، لكنه لن يساعدني البتة على حل مسألة الإله، إذا كان الإله موجودًا فيجب أن يوجد خارج العالم الطبيعي، نتيجة لذلك فإن أدوات العلم لن تمكننا من معرفة أكثر عنه. عوضًا عن هذه الأدوات، فقد بدأت بالاعتقاد بأن فهم هذا البعد الجديد، لن يتيسر إلا بالعودة إلى قلبي والنظر فيه، فأحسست بأن دليل وجود الإله لن يأتيني من موضع آخر، وبأن الحل النهائي لن

(٣٧) Déiste.

(٣٨) Théiste.

(٣٩) بعد الفحص وصل كولينز إلى أن الإله الذي يبحث عنه -وقد تجلى له في داخله عبر القانون الأخلاقي الشاوي في الذات البشرية- هو إله إبراهيم وليس إله أينشتاين، إذ الفرق بينهما يطوي مسافات الإيمان، التي تعلم الإنسان العلاقة الديناميكية بين الإنسان وربه، مذكرًا إياه موصولاً به، في حين أن إله أينشتاين يعني العزلة الإنسانية في الكون والخوف من الانقطاع وفقدان الوصال، يكون الإله الذي وصل إليه كواينز مستجيبًا للعلاقة مع البشر راعيًا لهم، وهو إيمان إيجابي يطمئن القلوب ويحيها في وحشة الوجود.

يكون مؤسسًا إلا على الإيمان[٤٠]، وليس على دلائل خارجية، وإن بقيت فريسة للشكوك، إلا أنه ومن خلال الدرب الذي سلكته، فمن الواجب الإقرار بأنني بلغت حد القبول لإمكانية وجود رؤية لعالم روحي، بما فيها وجود الإله.

من هنا فصاعدًا تبين لي أنه من غير الممكن المضي قدمًا أو العودة إلى الخلف، بعد سنوات من ذلك عثرت على قصيدة لشلدون **فانوكا Sheldon Vanauken**، [٤١]* الذي يصف فيها وصفًا دقيقًا المأزق الذي اجتزته بدوري، هاكم خلاصة هذه القصيدة:

بين الاحتمال، والمؤكد

تُحفر حفرة

خائفون من القفز،

فنحن نقف حمقى

من خلفنا رأينا الأرض تنهار،

وأسوأ من ذلك

وجهة نظرنا تتدهور،

والعصافير قانطة

أملنا الوحيد،

القفز في الكلمة

من يفتح المغلقة مصاريعه

مكثت لمدة طويلة أرتجف

على حافة هذه الحفرة المفتوحة،

وفي آخر المطاف

لم أتمكن من العثور على مهرب ممكن

فقفزت

(٤٠) **يستنجد فرنسيس كولينز بالحجة الأنطولوجية التي بناها في البدء القديس أوغسطين، إذ المعلم الأول موجود في باطني، ودليلي عليه هو أنا الذي يفكر مليًا في داخله، فأتحسس حضوره قريبًا. ثم ستنبثق بعد ذلك في الفلسفة المسيحية إشكالية الإيمان والتعقل، وراهن الكثير ومنهم القديس أنسلم على أسبقية الإيمان على العقل؛ إذ سؤال العقل يبدو في كثير من الأحيان وحيدًا من دون سند، فعلى الإيمان أن يسعفه في البدء. تطور الدليل الأنطولوجي بعد ذلك عند ديكارت، فالعثور على الحقيقة الباطنة في مناطق العقل تعود إلى وسيلة واحدة هي التعقل، وهنا جاءت الخلاصة المهمة للفلسفة الحديثة «أنا أفكر إذن أنا موجود»** ومع ديكارت لم يعد ممكنًا الإيمان دون شك وتعقل مرتهن بالحدس الرياضي، فكان الدليل على وجود الإله هو في حد ذاته التعقل.

إن المعضلة التي وقع فيها العقل الغربي في مسألة التناقض بين العقل والإيمان، ثم عدم كفاية الدليل الخارجي ليكون علامة على وجود الإله يؤول في مجمله إلى طبيعة العقيدة المسيحية المؤسسة على اللامعقول، وهي أزمة التثليث، حيث يبدو أن الإله الذي يموت على الصليب هو فقدان لمنطق الألوهية المؤسس على المطلقية والأبدية، فإذا مات الابن فلا بد أن تتبعه الأقانيم الأخرى لتموت بدورها، ثم إن فقدان الأناجيل لمنطق الكتاب المقروء المطابق للكتاب المنظور يعد معضلة عظمى عادت بالحيرة على معتنقي هذه العقيدة، فما كان لهم إلا التحير فيها عند السؤال عن طبيعة الإله الذي ولد ولدًا وضحى به في سبيل الغفران لخطايا البشر.

(41) * Sheldon Vanauken:A Severe Mercy**(une méséricorde Sévére)،(رحمة رائعة)** New York ,Harper-collins ,1980,P.100

كيف تكون مثل هذه المعتقدات ممكنة بالنسبة لعالم؟ ألا يتفق عدد من الأقوال الدينية مع موقف شخص مكرس لدراسة الكيمياء، والفيزياء، والبيولوجيا والطب، هي علوم متوقفة على طلب هو **«بيّن لي المعطيات»**؟. وقد فاتحت روحي لهذه الممكنات الروحية، فهل أكون قد باشرت حربًا بين مواقف مختلفة عن العالم، قد تستهلكني ولكن في النهاية قد أواجه من بينها النصر الساحق لهذه الموقف أو تلك.